دور البحار الصيني المسلم تشنغ خه في التواصل الصيني – العربي – الإفريقي

دراسة تاريخية في جذور العلاقات والتواصل والتبادل

د . فتح الرحمن محمد الأمين العراقي(*)

مقدمة:

تشينغ خه البحار الصيني المسلم الذي يحمل الاسم العربي حجي محمود شمس الدين ، والملقب (رسول المهمات الدبلوماسية) ولد عام 1371م في أسرة مسلمة تدعى (ما) من فومية (هوي بمقاطعة يونان في جنوب غرب الصين) تربى في بلط الأمير تيشو أي من أسرة (مينغ أمير منطقة يان (بيكين) قام بثلاثة رحلات بحرية عديدة زار فيها البلدان التي على ساحل المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي ومكة المكرمة ، وكان ذلك خلال سبع رحلات استغرقت حوالي 28 عاماً حاملا معه الحرير والعقاقير الطبية والمجوهرات والأقمشة.

تعتبر رحلات تيشيغ خة من أهم الرحلات البحرية ذات الأثر الحضاري بكونها نقلت الثقافة والحضارة الصينية خارج حواضنها وأحدثت تواصلاً شعبياً طوعياً مع مجموعة الشعوب في العديد من البلدان العربية و الإفريقية والأسيوية عموماً، بل تعتبر هذه الرحلات سابقة لرحلات المكتشف الايطالي كريستوفر كولومبس في العالم الجديد في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وكذلك كانت سابقة لرحلات رواد الكشف الجغرافي البرتغالي أمثال ماجلان وفاسكو داجاما، وفي عام 2005م احتفلت الصين بمرور ستمائة عام على أول رحلاته البحرية الضخمة التي عبر فيها المحيط (رسولاً للمهمات الدبلوماسية ورجلاً السلام) الذي جاب المحيطات ولكن لم يشعل حرباً ولم يقتل السكان الأصليين مثل ما فعل كولومبس بالهنود الحمر ولم يفعل مثل ما فعله جميس كوك بسكان استراليا الأوائل الابورجين.

قبل ستمائة سنة نزل تشانغ خه الملاح الصيني محور دراستنا في هذه الورقة بأسطول ضخم من السفن البحرية محملاً بكميات كبيرة من الحرير والخزف الصيني والمسك و الأدوات النحاسية و الحديدية و غيرها من السلع، و ذلك خلال الرحلات السبع التي قام بها إلى المحيط الهندي لممارسة التجارة مع البلدان المطلة على المحيط الهندي وذلك لتنمية العلاقات الودية، فكانت جزيرة

(*) أ . مساعد جامعة الجزيرة .. كلية الآداب والعلوم الإنسانية.. قسم التاريخ.

العرب هي المنطقة الرئيسية لممارسة التجارة التي قام بها تيشانغ خه في المحيط الهندي، وقد كانت منطقة هرمز إحدى نقاط الارتكاز التجارية الثلاث لأسطوله أما النقطتان الأخيرتان كانتا ملقا الواقعة على شبه جزيرة ملايو و كوزكود الواقعة على الشاطئ الغربي من شبه القارة الهندية، لقد قام تشانغ خه برحلاته السبع و زار فيها عدداً كبيراً من البلدان العربية مما أسفر عن توافد رسل البلدان العربية إلى الصين في زيارات عديدة كما أدى كسر الجمود الذي أصاب العلاقات الاقتصادية الصينية العربية وجعل التجارة من طرف واحد، وقد اعتبر تشانغ خه مبعوث الصداقة والمعرفة وأساس توسع العلاقات الصينية العربية وتعزيزها وازدهارها الثقافي بل طور التفاعلات بين الحضارتين الشرقية والغربية، وعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي حظيت بها بتلك الرحلات الهامة التي قام بها تشنع خه والتي عرفت باسم (رحلات الكنز) وما رافق تلك الرحلات السبع من كتابات وأبحاث عززت من شهرتها وقيمتها، وما وجدته من حفاوة وتكريم لدى الشعوب التي زارتها وعلى الرغم من كل هذا إلا أننا في المنطقة العربية أو الإفريقية نجهل الكثير عنه، بل نجهل ارتباط تلك الرحلات بحقبة مهمة من تاريخنا الإسلامي الوسيط على الرغم من حاجتنا لسبر أغوارها واستجلاء غموضها وأسرارها.

و نبدأ الحديث في هذا الموضوع الذي قسمناه إلى مباحث وفقا لما يلي:

المبحث الأول

جذور العلاقات و التبادل التجاري و الثقافي العربي الصيني قبل رحلات تيشانغ خه

إن العلاقات الودية بين الصين و الدول العربية تضرب جذورها إلى قديم الزمان، قبل أكثر من 2000عام، و كانت في تجدد دائم على مر الزمن منذ عام 318 قبل الميلاد،; , و منذ الألف الثالث قبل الميلاد لعبت المنطقة العربية و منطقة الخليج تحديداً دوراً كبيراً في التجارة مع مناطق جنوب شرق آسيا خاصة بين مناطق حوض نهر السند و بلاد الرافدين، حيث أشارت النصوص الرافدية إلى دولتين أو حضارتين خليجيتين هما حضارة ديلمون و ماجان، حيث كانت تضم الأولى جزر البحرين و فليكة و تاروت و الساحل الشرقي لشبة الجزيرة العربية، أما ماجان كانت تضم شبه جزيرة عمان و جنوب شرق إيران و مكران حيث تشير النصوص إلى تجارة نشطة بين تلك المناطق.[1]

(1) حمد بن محمود صراى ، العلاقات الحضارية بين منطقة الخليج و جنوب شرق أسيا، إصدار الجمعية التاريخية السعودية 1988م ص 13

وكان سفير المنطقة الغربية تشانغ تشيان بادي العلاقات السياسية والاقتصادية والتجارية والتبادل الإنساني بين الصين والبلاد العربية، وشكل نموذج الطرق التجارية العالمية في العصور الوسطى وهى الطرق المؤدية إلى تشانغان العاصمة الصينية القديمة والتي تعنى السلام الدائم في اللغة الصينية القديمة وتعرف الآن بشيان بجانب ربطها لمكة العربية، فالفضل يعود إليه في الإسهام في تطوير الحضارة الإنسانية وفي تمرير التجارة، كما نجد أن طريق الحرير القديم بين الصين والبلاد العربية قد ربط المنطقتين رباطاً وثيقاً وترك تراثاً نفيساً يجسد مجد و روعة الحضارتين الصينية والعربية، ولبعد المسافة بينهما استعملت الصين مجازاً للبعد والاستحالة والمشقة، إذ حث النبي ص صحابته على طلب العلم ولو في الصين، وتدل مقولته صلى الله عليه و سلم على تلك العلاقة الوطيدة التي تجمع بين الصين والدول العربية منذ القدم، وعلى أن الصين دولة عريقة تتميز بالحكمة والثقافة والتقدم، كما أن المنتجات الصينية الخزفية الخلابة موجودة في كل أنحاء الجزيرة العربية مما يدل على حجم التبادل التجاري . [1]

منذ أواسط القرن السابع للميلاد أي قبل أكثر من 1300سنه دخل الإسلام الصين عن طريق القوافل التجارية و لم يدخل عن طريق القوة بل عن طريق التجارة والبعثات الدبلوماسية حيث إن العلاقات العربية الصينية تعتبر علاقة ودية متناغمة منذ تاريخ قديم قبل أكثر من ألف سنه كما أن الاتصالات والتبادلات بين الجانبين كانت دائماً المنطلق الرئيس،عرف الطريق التجاري الذي تسرب منه الإسلام بطريق الحرير الذي يبدءا من تشانغآن (مدينة شيآن بمقاطعة شنشي اليوم) عاصمة أسرة تانغ شرقاً مخترقاً قلب قارة آسيا ليصل للقسطنطينية (اسطنبول في تركيا اليوم) وعن طريق البحر بإرسال البعثات التجارية، و وفقاً للمصادر التاريخية أرسل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه مبعوثاً إلى مدينة شيآن(تشانغ آن) عاصمة الصين آنذاك خلال فترة حكم سلالة تانغ الملكية، حيث التقى المبعوث وهو الصحابي الجليل سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه الإمبراطور الصيني عام 29 هـ الموافق سنه ستمائة وخمسون ميلادية وشرح له تعاليم الإسلام وأطلعه على أحوال دولة الخلافة وعادات المسلمين، لذلك اعتبر المؤرخون تلك الزيارة وذلك العام هو تاريخ بداية وصول الدين الإسلامي وانتشاره في الصين.[2]

وقد ورد في المصادر الصينية الموثقة أن 37 مبعوثاً عربياً قد تم إرسالهم من قبل خلفاء المسلمين إلى الصين في أزمان مختلفة، ومنهم رسول الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي زار مدينة (تشانغآن) الصينية سنه سبعمائة وستة عشر، كذلك وصل الصين رسول الخليفة

(1) جين تشونغ جيه، الإطار التاريخي و الثقافي للعلاقات العربية الصينية. مجلة المستقبل العربي ، ملف 1 ص 51

(2) فايزة كا ب (دكتورة) العلاقات الصينية العربية بين الماضي و الحاضر، 2010م ص 1

العباسي هارون الرشيد الذي التقى الإمبراطور تانغ جين يوان خلال فترة حكمة للصين ما بين الأعوام (785م/ 809م) كذلك تمت الإشارة إلى مكانة اللغة العربية بوصفها لغة التجارة الدولية في ذلك الوقت و لعدة قرون، كذلك تم استعراض قصة منطقة (شينجيانغ الصينية) التي استخدمت الحروف العربية في عملاتها الفضية في مطلع القرن العشرين حيث كان يكتب على وجه العملة بالغة العربية والوجه الآخر باللغة الصينية.[1]

كذلك ذكره في تاريخ انتشار الإسلام نتيجة للتواصل الثقافي والتبادل التجاري نجد أن سلطنة عمان قد لعبت عبر التاريخ دوراً أساسياً والأكبر في نشر الإسلام سلماً في الصين، فالعمانيون أمة بحرية قد خاضت غمار الأعاصير والفيضانات ووصلت إلى بلدان لم يصلها عرب قبلهم، وتقول المصادر العمانية إن العلاقة بين عمان والصين تعود إلى عصور ما قبل الميلاد حيث ظهر اسم عمان في السجلات والمؤلفات الصينية، ويقول الدكتور محمد ناصر المنذرى في كتابة تاريخ صحار السياسي والحضاري إن هناك من يشير إلى وجود مستعمرة عربية في جنوب الصين قرب كانتون في عصر ما قبل ظهور الإسلام نتيجة للتواصل القديم بين العمانيين و الصينيين.[2]

كذلك يعتبر العمانيين من أوائل الواصلين للصين خلال عملية انتشار الإسلام في الصين التي تعود بالأساس إلى اباضية عمان الذين عرفوا بلاد الصين منذ القرن الثاني الهجري وذلك عن طريق التجار العمانيين الذين أبحروا تجاه الصين فبلغوا فيها أقصاها، وقد ارتبط انتشار الإسلام في هذه البلاد بتاجر وبداعية أباضي عماني مشهور يدعى أبو عبيدة عبد الله بن القاسم العماني الذي كان يحمل لقب (بابي عبيدة الصغير) ولقبه الإمبراطور الصيني (سون سين زون) جنرال الأخلاق الطيبة، و هذا النجاح المادي والتجاري يعود للأخلاق الحميدة التي تحلى بها الداعية و التاجر التي مهدت له الحصول على هذه الرتبة الرفيعة، و قد كانت ممتلكاته قد تجاوزت حجم التجارة الخارجية السنوية لأسرة سون الصينية الحاكمة، و تعتبر رحلته من أقدم رحلات العرب إلى بلاد الصين إن لم تكن أول هذه الرحلات التجارية ذات النتائج الثقافية الهامة التي وردت في مصدر يعتبر من أهم المصادر الصينية وهو (موجز تسجيل الأمور الهامة في عهد أسرة سون)[3].

وهذه الأرضية الصلبة من التواصل انعكست على حاضر العلاقات بين البلدين في الوقت الحالي المعاصر حيث شكل التبادل التجاري بين البلدين حوالي 7 مليار دولار قد أصبحت الصين اكبر

(1) سونغ اكسين، موجز تاريخ التبادل الثقافي بين الصين و العالم العربي، ترجمة حسانين فهمي حسين،مركز الترجمة جامعة الملك سعود 2015 ، ص 23

(2) محمد بن ناصر المنذرى، تاريخ صحار السياسي و الحضاري، ص 13

(3) الشيخ محمد حسن التويمى، عشرة حقائق لا تعرفها عن مسلمي الصين الشعبية، منشورات الصين بعيون عربية، ص 1

شريك اقتصادي لسلطنة عمان، وأمر جلالة السلطان قابوس بتسيير رحلة بحرية من عمان إلى الصين على غرار الرحلات التاريخية، حيث كانت رحلة السفينة صحار التي أعادت إلى الأذهان الأمجاد البحرية العمانية، هذا بجانب تعاون ثقافي كبير بين البلدين تمثل في إنشاء كرسي السلطان قابوس لدراسات اللغة العربية في جامعة بكين.[1]

كان حصيلة كل الجهود السابقة إن بلغ عدد المسلمين الصينيين اليوم أكثر من 20 مليون مسلم يعيشون في أرجاء مختلفة من أنحاء الصين، وقد جاء اندماج الإسلام في الثقافة الصينية في مختلف النواحي والأنشطة المعمارية والعادات والتقاليد الدينية وخاصة في مجال الأخلاق والأصول الدينية وكان ذلك بغرض تعزيز عمليات انتشار الإسلام في الصين مما أدى إلى تشكل الإسلام الصيني ذو الخصائص القومية الصينية، وعلى الرغم من تأثر الإسلام بثقافة الصين التقليدية تأثراً عميقاً إلا أن (أركان الإيمان الستة) و(العبادات الخمس) والقواعد الإسلامية الأساسية لم تتغير في ثقافة و ممارسات المسلمين الصينيين.[2]

ونجد أن هذا التواصل لم يكن قاصراً على الأراضي الصينية بل امتد هذا التواصل ليشمل كل الشرق الأقصى حيث كانت التجارة السلمية عنواناً للعلاقة حيث تراكمت معارف العرب عن الشرق الأقصى وذلك بالتجارة معها والترحال إليها والسكن بين ظهرانيها بواسطة الهجرات والاستيطان فيها ثم دونوا معارفهم عن تلك المناطق، حيث كان هناك ما يشجع على استمرار تلك العلاقات فتكون لدى ثقافة الشعوب العربية متخيلاً عاماً عن حضارات الشرق الأقصى وشعوبها وذلك في سياق معرفتهم بالعالم، فقد كان العرب يعيشون مما تعطيهم البحار كما قال بلينوس الأكبر الكاتب الروماني، فقد مارس العرب القاطنون على الحافة الجنوبية من الجزيرة العربية (حضرموت،عدن،و جزيرة سوقطرة) دور الوسيط التجاري مما يؤكد على أهمية النشاط التجاري البحري في دعم العلاقات.[3]

وقبل ستمائة سنة نزل تشانغ خه الملاح الصيني محور دراستنا في هذه الورقة بأسطول ضخم من السفن البحرية محملا بكميات كبيرة من الحرير والخزف الصيني والمسك والأدوات النحاسية والحديدية وغيرها من السلع، وذلك خلال الرحلات السبع التي قام بها إلى المحيط الهندي لممارسة التجارة مع البلدان المطلة على المحيط الهندي وذلك لتنمية العلاقات الودية، فكانت جزيرة العرب هي المنطقة الرئيسية لممارسة التجارة التي قام بها تيشانغ خه في المحيط الهندي، وقد كانت منطقة

(1) زاهر بن حارث المحروقى ، العلاقات العمانية الصينية ، مسقط ،2015م ص 11

(2) فايزة كاب ، المرجع السابق، ص 3

(3) شمس الدين الكيلانى، صورة شعوب الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة، الصين و الهند و جيرانهما، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ، 2008م ص 11

هرمز إحدى نقاط الارتكاز التجارية الثلاث لأسطوله أما النقطتان الأخيرتان كانتا ملقا الواقعة على شبه جزيرة ملايو و كوزكود الواقعة على الشاطئ الغربي من شبه القارة الهندية، لقد قام تشانغ خه برحلاته السبع و زار فيها عدداً كبيراً من البلدان العربية مما أسفر عن توافد رسل البلدان العربية إلى الصين في زيارات عديدة كما أدى كسر الجمود الذي أصاب العلاقات الاقتصادية الصينية العربية وجعل التجارة من طرف واحد، وقد اعتبر تشانغ خه مبعوث الصداقة والمعرفة وأساس توسيع العلاقات الصينية العربية وتعزيزها و ازدهارها الثقافي بل طور التفاعلات بين الحضارتين الشرقية والغربية.[1]

المبحث الثاني

البحار الصيني تيشانغ خه سيرة و مسيرة

عندما يبحث الناس في تاريخ الحركة الكشفية الجغرافية فإنهم يجدوا عادة الأسماء الكبيرة التي اعتادت مسامعنا على سماعها مثل هنري الملاح وبارثلميودياز وكرسرتوفر كولومبس وغيرهم من الأسماء التي اشتهرت في تاريخ الكشف والفكر الجغرافي، ولكن الكثير لا يعلمون عن تاريخ احد المكتشفين من أصحاب الأعمال الكبيرة والأكثر إثارة للاهتمام والمتميزين بتأثيرهم في كل العصور وخاصة في الصين مثل البحار الصيني تيشانغ خه، وهو المسلم الذي أصبح أكبر أميرال في الصين والمكتشف والدبلوماسي، وينظر إليه باعتباره واحداً من أعظم وابرز من قاموا بنشر الإسلام في جنوب شرق آسيا، ولكن تم نسيان جهوده في الصين في فترة كانت الحكومة لا تدعم مثل هذه الحملات التي قام بها تشانغ خه وذلك لتبنيها الفلسفة الكونفوشيوسية التي لا تدعم مثل هذه الحملات، و نتيجة لذلك تم نسيان معظم انجازاته و مساهماته أو إغفالها لمئات السنين في الصين.[2]

ولكن ذلك يختلف تماماً فارثه موجود في جنوب شرق آسيا حيث تمت تسمية العديد من المرافق تخليداً لإسهاماته، وإن الصين احتفلت في الفترة السابقة بذكرى مرور ستمائة عام على أول رحلة قام بها تيشانغ خه في عام 1405م، مما دفع بعض المختصين في تاريخ العلاقات العربية الصينية للدعوة للاحتفال بهذه المناسبة عربيا وإسلامياً، والحقيقة أن تشنغ خه ظل شخصية مجهولة خارج الصين، وإلى حد كبير داخل الصين حتى ظهر كتاب الباحث البريطاني

(1) المرجع نفسه

(2) شمس الدين الكيلاني، صورة شعوب الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة، الصين و الهند و جيرانهما، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ، 2008م ص 11

غافين منزيس 1421: 1421) The Year China Discovered America، السنة التي اكتشفت فيها الصين العالم)، وتصدرت صورة تشنغ خه غلاف الكتاب.[1]

بل إن ما نعلمه عن هذا المستكشف الصيني المسلم جدير بأن يدفعنا إلى الدعوة إلى إعادة كتابة مقررات التاريخ والجغرافيا في المناهج العربية والإسلامية، بل يدفعنا للدعوة إلى إعادة تثقيف وتنوير القائمين على برامج المسابقات في محطات الإذاعة والتلفزة العربية، لأسباب نراها هامة ولا تخص البحار والصينيين فحسب بل تمس تاريخ وحضارة ومساهمات المسلمين ذوى الأصول والثقافة العربية والإسلامية، وتتصدى لدعوات تتردد وهناك بأن الوجود الإسلامي في أي مكان يكون مصدراً للقلق والتوتر، أو كما حذر البعض بأن وجود العرب بكثرة في جنوب الصين يمكن أن يشكل بؤر للإرهاب.لقد خلف أمير البحر الصيني المسلم تراثاً ثقافياً وافراً للأمة الصينية إذ أبحر في المحيط الهندي 7 مرات وصل بسفينته خلالها إلى أكثر من 30 دولة قاطعا 45 ألف كلم راكبا الأمواج الهائجة ليل نهار على مدى 28 عاما .وبالرغم من مرور 600 عام على رحلات البحار الصيني المسلم تشنغ خه (من أسرة مينغ الملكية/1368_1644/) وقافلته فان ذكراه لا تزال حية بشدة داخل الناس. والآن أثيرت موجة من دراسته وذكراه في إنحاء العالم.[2]

إن تيشانغ خه أو تيشنغ خه فيما يخص سيرته الباهرة هو بحار صيني له شهرة كبيرة فى تاريخ التواصل الحضاري الصيني العربي، وتيشانغ خه تعنى بالعربية حجى محمود شمس الدين الحاكم المشهور بمنطقة بخارى من الجيل السادس، و لد في أسرة من قومية هوى (Huiا) من المؤمنين بالإسلام بمقاطعة يونان (yunnan) المعاصرة جنوب غربي الصين عام 1371م،و اسمه الأصلي ما سان باو (Ma sanbao)التي تعنى (فتى الجواهر الثلاث) و قد افترض بعض الباحثين أن هذا الاسم ما هو إلا تحريفاً في الأدب الشعبي لكلمة (السندباد) صاحب الرحلات السبع مثل تشينغ خه ،الذي أدى لتسميه الناس له بالخصى سان باو، و قد سافر والده وجده إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج وقد تعرفا على أحوال المناطق النائية ومختلف أحوال الدول في ما وراء البحار، وقد قضى طفولة سعيدة وسط أسرته، حيث اعتنق الإسلام ودرس الشريعة الإسلامية منذ صغره وقد تشرب

(1) المرجع نفسه

(2) جمال بن مجذوب ، تجارة المسلمين مع الهند و الصين فى القرن الرابع الهجرة ، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة الجزائر، 2010م ص 150

ببعض مثاليات وأخلاقيات والده المتمثلة في النزاهة وحسن النية والصدق ومجموعة من الانطباعات التي لا تمحى، التي غرست الفضول والرغبة للمعرفة في نفس الصبي .[1]

ولكن الحرب مدت نيرانها في منطقته وقبض عليه بواسطة الجيش الإمبراطوري وكان عمره 12 عاماً، وخصى وأصبح طواشياً في الجيش الصيني والقصر الإمبراطوري لأسرة مينغ الملكية التي حكمت حوالي 277سنه أو اقل، حيث وصف البعض عصر أسرة مينغ بأنه وحداً من أعظم عصور الحكم المنظم والاستقرار الاجتماعي في تاريخ البشرية وقد كانت آخر سلالة للإمبراطورية التي تحكمها عرقية هان الصينية، فقد كانت العادة لدى الصينيين أن يخصوا أسراهم ويجعلوهم يعملون في بلاطهم كخدم لهم ويطلق عليهم جماعة الخصيان وعندما عمل تشانغ في القصر الإمبراطوري لاحظ أميره ذكاء وكفاءة ومواهب الصبي واجتهاده في الدراسة والعمل، وحظي بثقة أميره حيث تم اختياره ليعمل حارساً للإمبراطور تشو دى، وقد برزت أخلاقة الحميدة و كفاءته خاصة في (معركة جينغنان) التي دامت حوالي أربعة سنوات وسجل تيشانغ كثير من المآثر والبطولات، وأصبح من الأبطال الذين ساعدوا الأمير تشو دى على الاستيلاء على الحكم واعتلاء العرش متجشما الجرح والموت وبعد أن اعتلى تشو دى العرش قام بترقية هؤلاء الإبطال الذين رافقوه لفترة طويلة وساعدوه للوصول لعرش الصين ومنهم تشانغ خه الذي جعله من أهم معاونيه ومنحه اسماً جديداً و هو (تيشنغ خه)[2] .

وبسبب الفرص الفريدة التي أتيحت له حصل على كثير من الفرص التي أتاحت له التعامل مع كبار موظفي الطبقة الحاكمة حيث ازدادت معارفه واتسع بعد نظره هذا بجانب انه كان شاباً مستقيماً ولان لم يكن هناك احد يجاريه في القصر من حيث الذكاء والكفاءة، كان يتحدث مع أميره بقلب وعقل مفتوحين في شئون الإمبراطورية السياسية والعسكرية وكيفية معالجة المشاكل المختلفة مما جعل الإمبراطور يضعه في أول تحدي ليكون رسولاً وقائداً للرحلات البحرية، أصدر مرسوما بتكليف تشنغ خه بإعداد أسطول بحري يقوم بجولة في البحار الغربية، والتي قصد بها المياه الدولية الواقعة غرب الصين في المحيط الهندي. كانت أسرة مينغ الملكية القوية فكرت أولاً في إرسال رسول للسلام " وليس للقوة والهيمنة من أجل " إظهار رخاء وازدهار الصين " فقط بل من أجل إشاعة ثقافة

(1) المرجع نفسه

(2) جمال بن مجذوب ، تجارة المسلمين مع الهند و الصين في القرن الرابع الهجرة ، رسالة دكتوراه غير منشورة جامعة الجزائر، 2010م ص 150

وأيديولوجية الأمة الصينية المتمثلتين في "السلم خير " وإظهار فكرتها المتمثلة في التنمية السلمية بدون اللجوء إلى القوة المسلحة والدعاية لمفهومها حول " تمتع الجميع بالسلام والاستقرار العالميين [1].

وكانت رحلاته المحملة بهذا الهدف أحدثت وضعاً دبلوماسياً جديداً كلياً وفى وجه الصدامات والاضطرابات التي حدثت مع دول الجوار، لم يكن هدف الإمبراطور من الرحلة هو إبراز قوة جيشه وعظمة بلاده فحسب بل البحث عن الإمبراطور هوي الهارب إلى خارج الصين وتصفية القوى الموالية للإمبراطور الهارب والقرصنة والقوة اليابانية في البحر الخ، وإقامة علاقات مع الدول الواقعة على الخط البحري بجنوب غربي الصين، وكسب قلوب الشعوب، في سبيل تهيئة بيئة سلمية دولية يمكن للصين أن تحقق فيها القوة والاستقرار لأبناء الشعب وتحقيق الانفتاح البحري على الخارج من خلال التبادل التجاري والاقتصادي والثقافي مع الدول الآسيوية والأفريقية، لذلك تحول تيشنغ للملاحة البحرية حيث بدأ يدرس ويحلل خرط الملاحة البحرية ومواقع النجوم وتعلم فن عبور المحيطات، واطلع وراجع السجلات البحرية الأجنبية المختلفة ودرس الجغرافيا وعلوم البحار وقيادة السفن وإصلاحها.[2]

حيث استفاد من تطور الصناعات البحرية الصينية، حيث اشتهرت الصين من عصور ما قبل الميلاد بصناعة السفن ذات الحجم النسبي وبلغ فن صناعة السفن مستوى عاليا نسبيا في عهد أسرة سونغ الحاكمة، فقد كان عهدهم شهد تطوراً هاماً في الملاحة البحرية، وكان للصين في تلك الفترة مراكب وسفن كثيرة وكبيرة تجوب المحيط الهندي وكانت تصل إلى البحر الأحمر وكانت سفنهم تستخدم من قبل التجار الأجانب خاصة أن قانون المواصلات البحرية الذي سنته أسرة سونغ كان يسمح تحت طائلة من الشروط استخدام الأجانب للقوارب الصينية، ويكمن السبب الرئيس وراء استخدام الأجانب للقوارب الصينية والاستعانة بالخبرات الصينية في مجال الملاحة البحرية كان لجودة مراكبهم التي يستحيل الاستغناء عنها في ارتياد البحار الكبرى خاصة في بحر الصين الذي قال فيه ابن بطوطة انه لا يسافر فيه إلا بالمراكب الصينية وإضافة إلى ذلك تجربتهم الكبيرة ورسوخ أقدامهم في التجهيزات الملاحية.[3]

وكان عمال ترسانة السفن الصينية قد استوعبوا كل العمليات التكنولوجية لصنع السفن الكبيرة الحجم و قاموا بجمع التجارب الكثيرة مما جعل الصين تمتاز في ذلك الوقت بالقدرة على صناعة السفن الكبيرة الحجم حيث تجاوز المستوى الصيني فيما يخص حجم السفن المناطق الأخرى من

(1) بلال عبد الهادي، البحار و المستكشف المسلم تيشنغ خه قائد أعظم أسطول و ارمادة في تاريخ الصين، المنتدى العربي للدفاع و التسليح ، 2012م ص 1.

(2) المرجع نفسه .

(3) حسن إسماعيل، سفر الصين ، أطلس للنشر و الإنتاج الإعلامي، الجيزة مصر ، 2017م ص 11

حيث الحجم الكبير و دقة التركيب و المتانة و سلامة السير، وقد تمثلت التكنولوجيا المتقدمة في بناء السفن وقد كانت السفينة الشراعية الصينية تسع لحوالي ستمائة طن، و قد أدت هذه التطورات الكبيرة في مجال النقل و المواصلات لازدهار العلاقات التجارية العربية الصينية.[1]

المبحث الثالث

رحلاته البحرية في جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي

أحوال الإمبراطورية الصينية قبيل رحلات تيشنغ خه:

بعد أن أصدر الإمبراطور تشى دى مرسوما بتكليف تشنغ خه بإعداد أسطول بحري يقوم بجولة في البحار الغربية، والتي قصد بها المياه الدولية الواقعة غرب الصين في المحيط الهندي، ويتبادل سؤال حول تلك المهمة ذلك وهو لماذا قام الإمبراطور بتكليف تيشينغ خه، حيث كان الوضع الإقليمي حول الصين مضطرباً وطغى القراصنة في مناطق جنوب شرقي آسيا وهددوا سلامة المرور البحرية حيث أصبحت المواصلات غير مأمونة الجانب وقد اثر هذا الخلل الأمني في سمعة أسرة مينغ الحاكمة في محيطها الإقليمي، بالإضافة لتعديل سياسة الدولة الخارجية حيث اتخذت سياسة الانفتاح على الخارج وربط استقرار الصين وتطورها بالعالم الخارجي في محاولة لخلق حالة من السلام والاستقرار الدائم، وكانت رحلات تيشينغ خه البحرية هي من الإجراءات الهامة لهذه السياسية الخارجية، ولإقامة علاقات مع الدول الواقعة على الخط البحري بجنوب غربي الصين، ولكسب قلوب الشعوب، وذلك في سبيل تهيئة بيئة سلمية دولية يمكن للصين أن تحقق فيها القوة والاستقرار لأبناء الشعب وتحقيق الانفتاح البحري على الخارج من خلال التبادل التجاري والاقتصادي والثقافي مع الدول الآسيوية والأفريقية.[2]

إن رحلات تشنغ خه قد جاءت نتيجة للازدهار الذي شهده الاقتصاد الإقطاعي في أسرة مينغ الكبرى وكانت ثمرة لسياسة الإمبراطور تشى دى أو تشو دى الخارجية القائلة "" بأن كل من يعيش تحت قبة السماء في أقاصي الدنيا من رعايا إمبراطوريتنا"" بل أن الإمبراطور أعلن العفو عن كل من تحت السماء مقابل أن تعطي تلك البلاد السلع الثمينة، فقد كانت الصين في بداية عهد أسرة مينغ دولة قوية بفضل استقرار الحكم، حيث شهد المجمع الصيني تطوراً في جميع المجالات وكثرت في عهدها التبادلات التجارية حيث بدأت تندمج فيها الأفكار والعلوم الشرقية والغربية وأصبح الصينيون

(1) جمال بن مجذوب، المرجع السابق ص 23.

(2) حسن إسماعيل المرجع السابق ص 23.

يعرفون العالم في ظل هذه الأسرة أكثر فأكثر، حيث أحرزت الصين منجزات عظيمة في ظل هذه الأسرة في الثقافة والأفكار والأدب وعلم الفلك والرياضيات والطب والجغرافيا وغير من العلوم والتقنيات.[1]

وابرز الجهود الثقافية والحضارية في ظل هذه الأسرة كان كتابة (موسوعة يونغ له) بناء على أمر الإمبراطور يونغ له حيث انكب أكثر من ثلاثة ألف من العلماء على جمع قرابة ثمانية ألف نوع من الكتب وصنفوها في حوالي 11059 مجلداً، وتعتبر هذه الموسوعة كنز من الكتب الصينية القديمة وتغطى سلسلة واسعة من الموضوعات، وقد تم نسخها بعناية وبدقة متناهية مما جعلها ثروة كبيرة بين المخطوطات، وقد قامت الحكومة الصينية في الفترة السابقة بعرض الموسوعة أمام الجمهور بعد جهود كبيرة بذلت من أجل استعادة مظهرها الأصلي، وترمز إلى أعلى منجزات تأليف الكتب، وتعتبر النسخة التي عرضت هي النسخة الوحيدة التي ما تزال باقية في العالم و مع حوالي 400 مجلداً تعرضت لتخريب الغزاة الأجانب في العصر الحديث.[2]

وقد ربط الإمبراطور ما بين التعاون التجاري مع تلك البلدان ودفعها الجزية، وقد قبلت بعض الدول تلك السياسة التي أطلق عليها متخصصوا التاريخ الصيني (الدبلوماسية الماكرة) حيث كانت حكومة مينع تسير على سياسة التجارة المصاحبة لتقديم الهدايا تحت شعار(دفع الجزية والإتاوة) وذلك لتقريب الملوك والأمراء والترفق بالقادمين من أقاصي الدنيا مع منع الرعية من الخروج إلى البحر وأعلنت هذه السياسة مع مطلع أسرة مينغ، وذلك لإنعاش الاقتصاد وتسريع حركة التبادل التجاري، وأصبحت لأسرة مينع مكانة كبيرة باعتبارها الدولة السيدة أو المتسيدة، أو الدولة السماوية، وقد نجحت هذه السياسة وتمت مقابلتها بالرضى من عدد كبير من بلدان العالم وخاصة بلدان المناطق العربية حيث شهدت الصين في عهد هذه الأسرة قدوم أكثر من أربعين وفداً من البلاد العربية، [3] وجوهر هذه السياسة لم يكن تتجاوز إرسال الهدايا التي يمكن قبولها كجزية مصحوبة بتملق المسئولين وقد استجابت كثير من الدول الأجنبية لذلك العرض كما أسلفنا القول وأرسلت الوفود محملة بالهدايا التي حملت مسمى الجزية وقد كان من تلك الدول التي قبلت العرض بلدان الخليج العربي على رأسها ظفار وعدن وهرمز ومكة والإحساء، ورفضت بعض البلدان تلك الفكرة المخترعة من قبل إمبراطور المينغ باعتبارها فكرة مهينة وقد رد إمبراطور اليابان بشكل استعلائي على تلك الدعوة قائلاً "" إن

(1) رسول السلام من الصين ، إصدار بمناسبة الذي المئوية لرحلات تشنغ خه البحرية إلى الغرب، بدون مؤلف 201م ص 1،2،3

(2) المرجع نفسه

(3) محمد محمود خليل ، الخليج و الجزيرة العربية في الوثائق و الحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، مؤتمر العلاقات العربية الصينية ، جامعة قناة السويس، 2012م ص 1

السماء والأرض واسعتان وليس حكراً على حاكم واحد وإن العالم ملك العالم وليس ملكاً لشخص واحد"" وكذلك رفض الدعوة ملوك مقديشو وأسرة الجبور ملوك الاحساء الجدد الذين تم استخدام العنف معهم في الحملة الخامسة. (1)

وكانت حكومة أسرة مينغ في إطار محاولاتها لدعم العلاقات بينها وبين العالم الخارجي أنشأت لهذا الهدف (دار اللغات) التي تعنى بإعداد المترجمين وكذلك أنشأت (دار هوى تونغ) المسئولة عن استقبال الأجانب، هذا بالإضافة لإنشاء مجموعة من الاستراحات في الأقاليم الساحلية وذلك لاستضافة المبعوثين الذين يأتون إلى الصين لتقديم الهدايا، و من تلك الاستراحات كانت استراحة (لاى يوان) التي تعنى دار القادمين من أقاصي الأرض و (دار هواي يوان) دار الرفق بالغرباء في مدينة كانتون، كما صدرت الأوامر الإمبراطورية للسلطات الساحلية بإقامة وليمة على شرف كل مبعوث يأتي لتقديم الهدايا أو عند انصرافه، وكان الاهتمام بالزوار القادمين للصين، حيث تأثر الصين من السياسة التي سبقت جلوسها على عرش الصين المتمثلة في التحريم الصارم لأي شكل من أشكال التواصل البحري بين الصين ومحيطها الجغرافي و ذلك في الفترة مابين (1359م/1398م) وبدأ التحريم البحري يسفر عن عواقب وخيمة على اقتصاد الصين وتجارتها، فقد مضت أعوام والبلدان الأجنبية لا تقدم الهدايا أو الإتاوات للإمبراطور الصيني حيث أخذت مكانة الصين في الهبوط حتى استولى الإمبراطور تشو دى بانى هذه السياسة التفضيلية على السلطة في الصين، وكان يهدف من وراء هذه السياسة أن يستعيد اتصالات الصين بالبلدان الأفروآسيوية بما فيه البلدان العربية وبالفعل ساعدت تلك السياسة على تحقيق أهداف الإمبراطور.(2)

رحلات تيشنغ خه البحرية في جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي:

بعد أن أصدر الإمبراطور أوامره بدأ الشاب المسلم على الفور إجراءات تنفيذ المرسوم الإمبراطوري بأن بعث عددا من مساعديه إلى مدينة نانجينغ ومقاطعات جيانغسو وتشجيانغ وفوجيان وجيانغشي وهونان وقوانغدونغ، وكلها مناطق ساحلية، لمعاينة صناعة السفن للأغراض المختلفة. وكانت الصين في ذلك الزمان تمتلك اكبر ناقلة جنود بحرية في العالم. تقول السجلات التاريخية إن طول هذه السفينة كان مائة وخمسين مترا وعرضها ستين مترا وتبلغ حمولتها ألف طن. واستدعى الأدميرال تشنغ خه المتخصصين في الملاحة من أنحاء الصين لمرافقته في رحلته التي بدأت في الحادي عشر من يوليو عام 1405 م. قام برحلات عديدة زار فيها البلدان التي تقع على سواحل المحيط الهندي و جنوب

(1) المرجع نفسه

(2) قوة ينغ ، تاريخ العلاقات الصينية العربية، ترجمة تشانغ جيات ، ص 11

شرق آسيا و أفريقيا ووصل إلى منطقة الخليج و مكة المكرمة والبحر الأحمر وكان ذلك في سبع رحلات بحرية استغرقت حوالي 28 عاماً و هي رحلات تعتبر سباقة لرحلات الكشف البرتغالي الجغرافي التي بدأها هنري الملاح في أفريقيا وكذلك سباقة لرحلات كرستوفر كولومبس في النصف الغربي من الكرة الأرضية فيما يعرف الآن بالأمريكتين[1].

قاد تيشنغ خه رحلته الأولى البحرية في شتاء العام 1405م في المحيط الهادي الجنوبي والمحيط الهندي الذي يعرفه الصينيين باسم المحيط الغربي، وقد تكون طاقمه من 27800 رجل من الضباط والجنود والبحارة والملاحين والمترجمين والعلماء على متن اكبر أسطول في العالم في ذلك الوقت، وقد تكون من اثنان وستون سفينة للبضائع والمجوهرات وكميات كبيرة من الحرير والخزف والشاي وعدد 700 سفينة للخيول وعدد 240 سفينة للمؤن وعدد 300 سفينة للجنود وعدد 100 بارجة حربية، وكانت سفينته التي تحمل اسم سفينة الكنز تتصدر تلك السفن وكان يبلغ طولها حوالي 400 قدم، لذلك تم اعتبارها من أطول السفن البحرية في تلك الفترة وعند مقارنتها بسفينة البحار الشهير كرستوفر كولومبس التي كانت بطول 85 قدم فقط، وكان يأتي بعدها السفن المحملة بالباميل التي تستخدم في حفظ المياه وبجانب الخيول المستخدمة في الحركة البرية ثم السفن الصغيرة التي كانت تحمل المنتجات الصينية مثل الحرير والبور سلين وغير ذلك من المنتجات، يمخرون عباب البحر محملين بالهدايا إلى حكام الدول التي يزورونها باسم الإمبراطور الصيني تشى دى، كانت الصين قبل عهد أسرة يوان(1370م 1279م) لا تقوم بالرحلات البحرية البعيدة المسافة إلا سيراً على الخط الساحلي، غير أن رحلات تيشنغ خه خرجت عن هذا المنوال لتسجل خطوة تاريخية متقدمة في خطوط الرحلات البحرية وخبرات الإبحار ولتحتل موقعاً ريادياً في تاريخ الإبحار العالمي أيضاً، مما يجعل هذه الرحلات عبارة عن انجاز لا مثيل له حققته الصين في مجال الإبحار وأنها رحلة استطلاعيه بحرية ناجحة قام بها الإنسان أثناء مسيرة التقدم البشرى وفى نفس الوقت تمثل جهوداً بذلتها الحضارة الصينية من أجل التواصل مع حضارات العالم الأخرى.[2]

انطلق أسطول تشنغ خه المسمى بسفينة الكنز من ميناء ليوجيا القريب من مدينة سوتشو بمقاطعة جيانغسو، ومر بنهر اليانغتسي متجها نحو بحر الصين الشرقي ثم إلى المحيط الهندي. وصل الأسطول إلى فيتنام وسو مطرا وسيلان وغيرها. وقد تعرض الأسطول في رحلته هذه لهجوم قراصنة البحر، ولكن الأدميرال تشنغ خه أفلت منهم بل وأسر عددا من القراصنة حيث ذهب

(1) محمد محمود خليل ، الخليج و الجزيرة العربية في الوثائق و الحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، مؤتمر العلاقات العربية الصينية ، جامعة قناة السويس، 2012م ص 1

(2) رسول السلام من الصين ، إصدار بمناسبة الذي المئوية لرحلات تشنغ خه البحرية إلى الغرب، بدون مؤلف 201م ص 1،2،3

الأسطول إلى جزيرة جافا اولاً ثم بملقا ثانياً وسومطرة ووصل إلى كلاكوت في الهند حيث حصل مجموعة من سلع تلك المناطق، وأسس المجتمعات الإسلامية الصينية في اليمبانج وعلى طول ساحل جاوة وشبه جزيرة الملايو والفلبين وبشر السكان المحليين في هذه المجتمعات بالإسلام حيث كانت هذه مهمته الكبيرة التي نوى تنفيذها في هذه المناطق التي تمثل محيط الصين الجغرافي، وعندما مر الأسطول الصيني بسريلانكا احترم تيشانغ خه المعتقدات المحلية للبوذيين وتبرع بالأموال لبناء معابد لهم و تصدق بالكثير لفقرائهم.[1]

إلى جانب ذلك وأثناء رحلاته البحرية بعد أن قضى تشنغ خه على القراصنة وشق بعض الخطوط الملاحية الجديدة، و كانت قافلته تعمل جاهدة على إظهار قدرة الأمة الصينية على الحسم الفريد للتبادلات المتحضرة والعلاقات الدولية وذلك كخلاصة فكرية "للسلام " وأفاق روحية " للتهذيب والأدب "كما ورد في الثقافة الصينية وبدأ التجارة مع مختلف البلدان، كانت الصين مصدراً رئيسيا الخزفيات والحرير والشاي والمنتجات المعدنية والعملات النحاسية، وبعد تجارة المقايضة عاد الأسطول الصيني بالمجوهرات والبخور والتوابل والعقاقير والحيوانات الغريبة والنفيسة، استوردت الصين من الخارج 50 كغم من الفلفل الأسود الذي كان يباع في الخارج بأوقيتين من الفضة للكيلوجرام الواحد، لكنه يباع بأربعين أوقية من الفضة داخل الصين، فكانت الأرباح كبيرة، وفقاً للإحصاء، وكان أسلوب تحديد الأسعار بالتصفيق باليدين له تأثير كبير، و بعد أن وصل الأسطول الصيني قدم بضائعه إلى موقع للتجارة، تحت إشراف مسؤولي الطرفين تم تحديد أسعار البضائع علنياً، بعد الاتفاق صفق الطرفان بأيديهما تعبيراَ عن انتهاء الصفقة وعدم الندم، كان أسلوب التجارة الودية هذا من الأحاديث الطيبة التي تناقلها الناس هناك، وفى النصف الثاني من عام 1407م قام تيشانغ خه برحلته الثانية البحرية على خط مشابه لخط رحلته الأولى لمدة سنتين، وفي صيف عام 1409، قام برحلته الثالثة. كان مركز الرحلة لا يزال في المحيط الهندي.[2]

وأقام تشنغ خه سور مدينة على شكل سياج وضع داخله مستودعات بحيث كان بمثابة مركز ترانزيت للتجارة البحرية في ملقا. وفي رحلة عودته من كلكتا، وقعت معركة بينه وبين ملك سيلان، وعاد تشنغ خه منتصرا بأوامر من الإمبراطور تشنغ تسو، قام تشنغ خه بالرحلة الرابعة في نوفمبر1412حيث واصل أسطوله رحلته إلى الغرب حتى وصل إلى ساحل أفريقيا الشرقي وعاد تشنغ خه إلى بلاده عام 1415، وعادت فرق السفن الفرعية بعد سنة من عودته، في مايو 1417 قام تشنغ خه برحلته الخامسة، وكانت مهمته الرئيسية هي حماية واصطحاب مبعوثي 19 دولة ليعودوا

(1) المرجع نفسه

(2) حسن إسماعيل، المرجع السابق ص 11

إلى بلدانهم. وصل أسطوله إلى أقصى جنوب ساحل أفريقيا الشرقي. وفي يوليو 1421 قام تشنغ خه برحلته البحرية السادسة لاصطحاب مبعوثي 16 دولة إلى بلدانهم. وصل أسطوله إلى ميناء ممباسي في غينيا وإلى الصومال. وفي بداية عام 1431، أمر الإمبراطور شيوان تسونغ، الذي ورث عن جده الإمبراطور تشنغ تسو الطموح، بأن يقوم تشنغ خه بالرحلة البحرية السابعة. استغرقت هذه الرحلة أكثر من ثلاث سنوات، زار أسطول تشنغ خه خلالها نحو عشرين بلدا، وبعث من معه لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة.[1]

ما سبق هو ما يتعلق (بالملامح العامة) لتلك الرحلات التي استمرت على مدى ثماني وعشرين عاما، هي الفترة التي استغرقتها الرحلات البحرية السبع لتشنغ خه، وصل البحارة الصينيون إلى منطقة الخليج والبحر الأحمر والسواحل الشرقية لأفريقيا بل هناك تأكيدات تاريخية وآثارية حيث تقول جافين منزيس، بوصول تلك الرحلات إلى الشواطي الأمريكية، ولكن الدراسة لست بصدد مناقشة ذلك إنما التوثيق لتلك الرحلات بتركيز على مناطق أفريقيا وبعض المناطق العربية، حيث دخل الأسطول الصيني إلى بحر العرب لأول مرة عام 1414م و كان الطريق البحري المعتاد هو (طريق الحرير البحري) أو ما يعرف بطريق الفخار أو طريق العطور الذي ينطلق من قوانغجو و يخترق مضيق ملقا و مناطق (جينغ شي لان) سيرلانكا الحالية جنوب شبه القارة الهندية وصولاً الخليج العربية أو البحر الأحمر، حيث وصلت السفن الصينية إلى البلدان العربية إلى خليج عدن اليمنى، أما على الجانب الإفريقي قد وصلت السفن الصينية إلى زنجبار والصومال وكينيا ومعظم مناطق شرق أفريقيا.[2]

وما بين العام الرابع عشر (1416 (والواحد والعشرين (1423) من فترة يونغ له أوفدت مقديشو ثلاث بعثات إلى الصين أهدت خلالها لأسرة مينغ الأسد وحمار الوحش، وقد أدخلت صورة الأخير في (مجموعة صور الغرائب) الذي تم تأليفه في فترة شيوان ده (1426–1436) من عهد أسرة مينغ؛ وزار تشنغ خه بأسطوله مقديشو ثلاث مرات، وصل إليها في المرة الأولى والثانية في زيارة جوابية، وقد حمل معه قطعا من العملة المسكوكة هدية من إمبراطور مينغ إلى ملك مقديشو وملكتها وفي الزيارتين المذكورتين، جرت بين الركاب من أهل شانغهاي وسكان مقديشو، اتصالات تجارية مكثفة، حتى إن الصوماليين أطلقوا كلمة (Shanghaining)، أي أهل شانغهاي،على المنطقة الشرقية من مدينة مقديشو في وقت متأخر رغبة في تخليد ذكراهم ومتحف الدولة بالصومال اليوم لا يزال يحتفظ ببعض القطع من خزف مينغ الصيني التي

(1) المرجع نفسه ص12

(2) رونغ جيان، تاريخ العلاقات الصينية العربية حاضرها و مستقبلها، منشورات القسم القنصلي الصيني سوريا،ص 11

يقال إنها مما حمله تشنغ خه إلى الصومال في أثناء زياراته إليها، ويحتفظ كذلك بورقة من خريطة ملاحة تشنغ خه في حالة جيدة، وهي منسوخة بيد الفرنسيين فبقيت هذه الآثار الثمينة شواهد تاريخية قيمة على الصداقة العريقة القائمة بين الصين والصومال. وفي فترة يونغ له (1403-1424 أوفدت براوة أربع بعثات إلى الصين. وفي العام الخامس من نفس الفترة قدم رسل براوة للصين عددا من الجمال العداءة والنعامات السباقة. وقد زارها تشنغ خه ثلاث مرات قابله السكان خلالها بالترحاب، وترك هو فيهم أثراً عميقاً حتى إنهم أطلقوا اسمه على إحدى قراهم في وقت متأخر تعبيرا عما كانوا يكنون له من الشوق والحنين. وهذه القرية المسماة تشنغ خه لا تزال قائمة في إحدى ضواحي مدينة براوة حتى اليوم[1] .

ونتيجة للصلات والمبادلات التجارية المستمرة بين عمان والصين خاصى وجنوب شرق آسيا عموماً بتبيين من مرويات المؤرخين أن حجم التجارة كان عظيماً، إذ يؤكد صاحب كتاب عجائب الهند نقلاً عن احد التجار والملاحين العمانيين حيث أكد على الحجم الكبير للتجارة من خلال استعراض قيمة العشور التي يتحصلها حاكم عمان وأن تجار عمان في تلك الفترة كانوا من أغنى تجار العالم و إن منطقة عمان كان اقتصادها يقوم على تلك التجارة، وكان من نتائج التبادل العماني الصيني وجود العديد من المؤثرات العمانية في الحياة الثقافية والحضارية الصينية حيث توجد مجموعة من المساجد والأبنية على الطراز العماني البسيط الذي يتميز بعدم وجود نقوش وزخارف ويعود ذلك النمط المعماري البسيط إلى تشدد العلماء الاباضية الذين حذروا من تزيين المساجد، وكان احد علمائهم يقول متشدداً في عدم جوازهم لتزيين المساجد "" لا تبنى بالتصاوير ولا القوارير ولكن زينتها نظافتها وتعظيمها بالذكر، بل مضى المؤرخين العمانيين أكثر من ذلك في توصيف تاريخ وصول السفن العمانية إلى الصين قبل وصول السفن الصينية إلى المنطقة العربية التي أفادوا بأنها لم تصل إلى العالم العربي إلا بعد القرن السابع الهجري مستندين في إثبات ذلك على رؤية المؤرخ الانجليزي(William Facy) وأن السفن العمانية أطلقوا عليها السفن الصينية اصطلاحاً جرى تداوله والتعارف عليه.[2]

(1) المرجع نفسه

(2) حبيب الهادي و خالد الرحبى ، دور العمانيين في نشر الحضارة الإسلامية في منطقة جنوب شرق آسيا من القرن الأول إلى القرن الرابع الهجريين، ورقة علمية مقدمة لمؤتمر الدور الحضاري لعمان في وحدة الأمة، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا ، اغسطس2014م ، ص 11

وكانت صحار قصبة عمان في علاقاتها مع الشرق الأقصى بل تعد أهم مدن عمان التجارية ويصفها المقدسي بأنها "" دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن "" وقد نقل عنه الحموي في معجم البلدان هذا الوصف، كذلك كان لمدينة مسقط دواراً هاماً في تجارة الشرق الأقصى عموماً، فقد كان بها بئر من الماء العذب كانت تتردد عليها السفن التجارية للتزود بالماء، ولتصريف بضائع الشرق الأقصى.[1]

كذلك من المناطق العربية التي حظيت بزيارات عديدة لأسطول تشنغ خه مدينه الشحر التي تعتبر المدينة الحضرمية الوحيدة التي حظيت بالعديد من زيارات الأسطول الصيني ضمن الرحلات السبع على المحيط الهندي، وقد زار مدينه الشحر التي كان عليها السلطان سعد بن مبارك بن فارس الكندي وذلك خلال الرحلات الثلاثة الأخيرة، وخلال الزيارة الأولى حدث استعراض للقوة من جانب الأسطول الصيني ، لعل في وجود مثل هذا الأسطول أمام سواحل حضرموت ومدينة الشحر تحديداً دافعاً لهذا الأسطول الضخم لان يظهر نوعاً من استعراض القوة والحركات الاستعراضية وهو الأمر الذي لم يفعله مع عدد من المواني المطلة على السواحل العربية الجنوبية الأخرى مثل هرمز وظفار باستثناء عدن ومقديشو التي فعل فيها نفس الاستعراض كإظهار للتفوق وإبراز العضلات، بالإضافة لبعض المناوشات التي انتهت بكتابة صلح وتفاهمات وتبادل للزيارات والسفارات، على الرغم من أن هناك خلط بين مدينة الشحر التي تعرف بالاسعاء وبين منطقة الإحساء التي نسبت لها بعض الأحداث خطأ، وقد باع الأسطول الكثير من المنتجات الصينية في مدينة الشحر مثل الذهب والفضة والعنبر والحرير و الخزف الصيني.[2]

وكان على اليمن عند قدوم أسطول تشنغ خه الملك الناصر احمد بن إسماعيل الرسولي الذي استدعى قادة الأسطول إلى مدينة تعز، وعندما حضروا لم يقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له سيدك ملك الصين يسلم عليك و يوصيك بالعدل فى رعيتك ، وقدموا له هدية ملك الصين إليه وكانت هدية فاخرة من الثياب والتحف والمسك والعود، وقد بادلهم أيضاً الهدايا ببعض الحيوانات المتوحشة، ونجد أن الملك الناصر على الرغم من اعتراضه على أسلوب المبعوث الصيني إلا انه رفض الدخول في حرب معه مثل الجبور حكام الإحساء حيث تصرف بدبلوماسية شديدة الذكاء وذلك عن طريق تسجيله لاعتراض مكتوب اظهر فيه مدى غضبه من أسلوب الإمبراطور الصيني المتعالي المغرور ومبعوثه العاري من اللطافة والمتسربل بالكثافة، كذلك وصل بحارة تشنغ خه إلى منطقة هرمز على

(1) عبد الله بن على العليان ، التاريخ البحري العماني، مسقط 2014م ص 1

(2) أنور حسن السكوتى ، صفحات مجهولة من التاريخ الحضرمي، تشنغ خه في ضيافة سلطان الحر أبي دجانة، صنعاء،2015م ص 1

الخليج والتي سيطرت على البحرين والقطيف بجانب خضوع إقليم الإحساء وحكامها العرب من بنا جبر إلى التبعية الاسمية وتقديم فروض الولاء والطاعة والمساعدات لسلطان هرمز توران شاه الثاني وقد مكث بحارة تشنغ خه حوالي شهرين في تخوم هرمز قبل الانطلاق في رحلة العودة إلى الصين في 1433م في رحلة عودة سريعة استغرقت حوالي خمسه أشهر، وكان قادة الأسطول خلال إقامتهم في هرمز يتصلون مع النخب المحلية مما ممكن أمراء هرمز من التعرف على قوة الدولة الوسطى في الشرق الأقصى.[1]

إن العديد من الدول القريبة من المحيط الغربي قد أرسلت وفود عبر البحر لدفع جزية قيمة أمام العرش الإمبراطوري ، أما المناطق التي لم تخضع أمر الإمبراطور تشنغ خه بأن يأخذ خطابات إمبراطورية لكل الدول التي لم تخضع للسيادة الصينية و أن يحمل لملوك تلك المناطق التي لم تضع هدايا ثمينة من الحرير المطرز والملون ومنح زوجاتهم وكبار موظفيهم هدايا فاخرة حفزت العديد من البلاد على إرسال مبعوثيهم وكان على رأس تلك الدول هرمز التي أرسلت احد أمراءها.[2]

وتعد خريطة الإبحار الخاصة بتشنغ خه أهم الخرائط والشواهد المادية المتبقية لرحلات أسطوله، البحرية البعيدة، وعليها علامات دقيقة لمواقع الجبال والجزر والجسور والمدن لتكون دليلاً واضحاً على امتلاك السفن البحرية الصينية خبرات واسعة في الإبحار لمسافات بعيدة، على عكس السابق حيث لم تكن السفن الصينية تقوم بالرحلات البحرية بعيدة المسافة إلا سيراً على الخط الساحلي، غير أن رحلات تشنغ خه خرجت عن هذا المنوال لتسجل خطوة تاريخية متقدمة في دبلوماسية التجارة والتواصل البحري، تأثر الناس اليوم بما بشرت به رحلات تشنغ خه البعيدة المسافة حينذاك من سلم وحضارة إلى الدول التي مرت بها قافلته ووصلت إليها ما زالت بذور الحضارة والصداقة تنمو بلا انقطاع. ولا تزال ذكراه حية بعمق دواخل شعوب بعض دول جنوب شرق آسيا التي وصلت قافلته إليها كما لا تزال بقايا الثقافة الصينية هناك تظهر رونقها وروعتها . فليجعل كل ذلك من " رحلات تشنغ خه إلى المحيط الهندي " تصبح علامة ثقافية فريدة وان ما جسدته من المفهوم والممارسة العملية المتمثلتين في تعامل الصين مع الدول بروح حسن الجوار والصداقة والاتصالات السلمية قد قدم تجارب وخبرات تاريخية نفيسة للتعايش المتناغم للبشرية ويتوافق مع الموضوع العصري للسلام والتطور في عالم اليوم وهذا ما يحتاجه المجتمع الدولي اليوم .

الخاتمة :

(1) محمد محمود خليل، الخليج العربي و الجزيرة العربية في الوثائق و الحوليات الصينية في فترة العصور الوسطى،2015م ص 25

(2) محمود خليل، المرجع السابق، ص 39

من خلال استعراض الجهود التي بذلها البحار الصيني تيشنغ خة نستطيع أن نصل إلى إن هناك اختلاف كبير بين أمير البحر الصيني المسلم تشنغ خه وغيره من البحارة الأوروبيين أن الأول في رحلاته السبع عبر المحيطات والبحار كان رسول سلام، يقيم صداقات ويتبادل الهدايا والثقافة والمعرفة والمعلومات، بينما الآخرون كانوا قراصنة بحر استعماريين لم يتورعوا عن تسخير كل شيء وأي شيء لخدمة أغراضهم الاستعمارية، فقد سعى ماجلان إلى اكتشاف طريق جديد إلى الهند، ليس للتعرف على أهل وثقافة هذه البلاد وإقامة صداقات معها وإنما لنهب ثرواتها واحتلال أرضها. ويقول الباحث البريطاني جافين منزيس، مؤلف كتاب " الصين اكتشفت العالم عام 1421" إن ماجلان استعان في رحلاته البحرية بالخرائط الصينية التي رسمت بناء على معلومات رحلات تشنغ خه. أما كولمبوس فقد فتح الباب للاستعمار الأوروبي للقارة الأمريكية والقضاء على سكانها الأصليين من الهنود الحمر وتقف مذكرات برتلومى دى لاس كازاس شاهدة على عمليات الابادة التى جرت في الأمريكتين، ليس مهما من الذي اكتشف القارة الجديدة أولا، فتأكيد جافين منزيس أن تشنغ خه اكتشف أمريكا قبل كولمبوس بسبعين عاما وأن كولمبوس استخدم الخرائط التي رسمها تشنغ خه للوصول إلى أمريكا عام 1492، قد يضيف معلومة تاريخية جديدة ولكن الأكثر أهمية من هذا هو الهدف الذي سعى إليه كل منهما في رحلته،ووفقاً لما ذكر توصل الباحث للنتائج التالية:

النتائج :

أولا : أن البحار الصيني تشنغ خه، مسلم مؤمن، ونموذج رائع للمسلمين الصينيين ورسول سلام عالمي عظيم، جسد تسامح الدين الإسلامي في الفكر وفي العمل وحب السلم وحسن الجوار وجمعها مع الأخلاق الحميدة للأمة الصينية جمعا رائعا، ونشرها حيث وصل، بذلك قدم إسهاماً كبيراً في نشر الحضارة الإسلامية ودفع الجمع بين الحضارة الصينية والحضارة الإسلامية، وأظهر روح تضامن الأمة الصينية.

ثانياً : إن استعراض رحلات تشنغ خه العظيمة والبعيدة المسافة التي يرجع تاريخها إلى ما قبل 600 عام هو ليس من أجل الشوق إلى عمل عظيم للفرد وإلى فخر واعتزاز عصري وانما هو استذكار تقليد تاريخي كان يمثله تشنغ خه خلال اتصالاته الدولية في عملية رحلاته إلى المحيط الهندي وكذلك استذكار وضع نبيل لتقارب الثقافات المختلفة من بعضها البعض عبر هذه الرحلات العظيمة .

ثالثاً : إن رحلات تشنغ خه إلى المحيط الهندي " أصبحت علامة ثقافية فريدة وان ما جسدته من المفهوم والممارسة العملية المتمثلتين في تعامل الصين مع الدول بروح حسن الجوار والصداقة

والاتصالات السلمية قد قدم تجارب وخبرات تاريخية ونفيسة للتعايش المتناغم للبشرية ويتوافق مع الموضوع العصري للسلام والتطور في عالم اليوم وهذا ما يحتاجه المجتمع الدولي اليوم .

رابعا / إن هناك اختلاف كبير بين أمير البحر الصيني المسلم تشنغ خه وغيره من البحارة الأوروبيين حيث أن أن الأول في رحلاته السبع عبر المحيطات والبحار كان رسول سلام، يقيم صداقات ويتبادل الهدايا والثقافة والمعرفة والمعلومات، بينما الآخرون كانوا قراصنة بحر استعماريين لم يتورعوا عن تسخير كل شيء وأي شيء .

التوصيات :

أولاً : يرى الباحث بأن العرب عموماً مقصرين في الاهتمام بالصين وبما حققته من تنمية وتطور وضعها على خريطة العالم، ويتفق مع ما أورده الدكتور مسعود ضاري عن عدم ترجمة العرب لأي كتاب صيني إلى اللغة العربية، متسائلاً عن السبب الذي أدى لعدم اخذ العرب للعلم من الصين فما حققته من تقدم لا نعلم عنه إلا القليل جداً وعلى مستويات مختلفة، وأن التنمية التي حققتها الصين هي أعلى معدلات التنمية في العالم، لذلك يوصى الباحث بعدم الاستغراق في التاريخ إنما الاستفادة من الماضي في تطوير الحاضر، وذلك بالاستفادة القصوى من الصين لما تمثله من قوة كبرى في هذا العالم وخصوصاً أنها أظهرت في أكثر من مناسبة انحيازها إلى جانب قضايا المنطقة.

ثانياً : وقد قرأت عن تشنغ خه من قبل كمجرد بحار صيني، لم يكن يرقى في ظني إلى البحارة المستكشفين من أمثال كريستوفر كولمبوس وفرناند ماغلان وفاسكو داغاما، كما لقننا كتبنا الدراسية. فلو أنك سألت تلميذا عربيا عن مكتشف العالم الجديد لروى لك القصة الكاملة لكولمبوس ولقال كثيرا عن استكشاف ماغلان للطريق الجديد إلى الهند. ولكن ما ينبغي أن نعلمه عن هذا المستكشف الصيني المسلم جدير بأن يدفعنا إلى التوصية بإعادة كتابة مقررات التاريخ والجغرافيا في المناهج العربية، بل والدعوة إلى إعادة تثقيف وتنوير القائمين على برامج المسابقات في محطات الإذاعة والتلفزة العربية، لأسباب نراها وجيهة، لا تخص السيد تشنغ خه والصينيين فحسب بل وتمس تاريخ وحضارة ومساهمات المسلمين وذوي الأصول العربية، وتتصدى لدعوات تتردد هنا وهناك بأن الوجود الإسلامي في أي مكان يكون مصدر قلق وتوتر أو كما حذر البعض من أن وجود العرب بكثرة في جنوب الصين (عشرة آلاف وفقا لما قاله وزير التجارة الصيني بو شي لاي) يمكن أن يشكل بؤر إرهاب.